محاضرات مقياس الاستشراق

الأستاذة نعيمة رحماني

السنة 2 انثروبولوجيا

المحاضرة01

الإشكاليّة المفاهيميّة لمصطلح الاستشراق

تحديد مفهوم مصطلح الاستشراق من بين الإشكالات المطروحة، والّتي تكتسي أهمّيةً بالغةً في فهم الظّاهرة الاستشراقيّة. وبموجب المفاهيم المتداخلة يتعسّر علينا إفادة مفهوم دقيق لظاهرة الاستشراق، بيد أنّ هناك من يعدّه علماً، وهناك من يعدّه ظاهرةً، وهناك من يعدّه أسلوباً أو دراسةً، دون إغفال الاضطراب الشّديد الّذي يعرفه على مستوى التّوظيف والفهم.

تجدر بنا الإشارة إلى أنّ مصطلح "**الاستشراق**" لم يرِد في المعاجم القديمة بالمعنى الّذي نعرف حاليًّا، فقد حدّد ابن منظور مفهومه من المكان وقدّر اسم المكان الّذي تشرق منه الشّمس شرقيًّا، ومن ذهب إلى الشّرق فقد شرّق.[1]

في حين عرض قاموس أكسفورد كرونولوجية تَكَشُّف المصطلح وتَغيّر معانيه بتفصيليّة أكثر، حيث اعتُمد مصطلح "المستشرق" عام 1683م، بمعنى عضو الكنيسة، ثمّ تحوّل المعنى عام 1738م ليدلّ على صاحب التّفكير الذّكيّ والفطنة، واستشهد القاموس بشيوع "الاستشراق" عام 1774م بما يُقصد به البحث الشّرقيّ أو المعرفة بلغات الشّرق، ثمّ أصبح يعني ما بين 1779م و1781م الشّخص المتمرِّس في اللّغات الشّرقيّة وفي الأدب الشّرقيّ، وبعدها توسّع مفهومه بين 1791م و1823م وصار يعني المستشرقين الّذين يكتبون من اليمين إلى اليسار، أي اللّغات العربيّة والفارسيّة والعثمانيّة وغيرها من اللّغات الشّرقيّة.[2]

---

[1] أبو الفضل جمال الدّين بن محمّد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ج8، دار صادر، بيروت، لبنان، 2003م، ص.64.

[2] عبد الجبّار ناجي، الاستشراق في التّاريخ، المركز الأكاديميّ للأبحاث، بيروت، لبنان، 2013م، ص.116.

ثم حال المعنى في المعاجم ليُعطي مفهوماً أقرب للمفهوم المقصود، حيث جاء في المنجد في اللّغة العربيّة، أشرق صار مستشرقاً، واستشرق اهتمّ بالدّراسات الشّرقيّة، والمستشرق أديب غربيّ يهتمّ بدراسة تراث الشّرق وحضاراته ولغاته.[3] وورد المفهوم نفسه في قاموس لاروس الّذي عرّف المستشرق بالباحث الّذي له علاقة بالاستشراق، والمختصّ في الحضارات الشّرقيّة.[4]

ورغم كلّ هذه التّعريفات اللّغويّة إلاّ أنّه يجدر بنا التّنويه إلى أنّ الدّراسات الاستشراقيّة كانت قد سبقت ظهور مصطلح الاستشراق بزمن طويل، يصل إلى قرابة ألف عام.[5]

هذا بالنّسبة **للمفهوم اللّغويّ**، أمّا **المفهوم الاصطلاحيّ** للاستشراق فقد عرف تداخلات والتباسات وفيرة مردّها إلى المراحل المتباينة الّتي مرّ بها، من دينيّة إلى سياسيّة إلى علميّة، وفي كلّ مرحلة يظهر معنى مُبتكر، وخصائص حديثة تبعاً للأهداف والسّياسات المنشودة. فحيناً يُعتبر علماً، وحيناً ظاهرةً، وحيناً أسلوباً وحيناً آخر نمطاً وهكذا.

وبما أنّ الاستشراق قد عرف تحوّلات كثيرة ولم يثبت على معنى محدّد مثل باقي العلوم الإنسانيّة، بل وقد احتوى على مجموعة من العلوم، فلا يُمكن اعتباره علماً، بل هو كما وصفه الباحث ساسي الحاج ظاهرةٌ ثقافيّةٌ نمت وازدهرت وتطوّرت ثم تقلّصت آثارها وضاقت حقولها.[6]

ويُساند الفكرة نفسها الباحث محمّد دسوقي الّذي يَعتبر الاستشراق "ظاهرةً فريدةً في تاريخ الفكر الإنسانيّ، لم يعهد أنّ طوائف متباينة العقائد والثّقافات والجنسيّات أطبقت كلمتها

---

[3] المنجد في اللّغة العربيّة، دار المشرق، باب حرف الشّين، 2003م، ص.765.

[4] Le petit Larousse (grand format), Larousse, 2005, p.763.

[5] محمّد قدّور تاج، الاستشراق، ماهيته، فلسفته، ومناهجه، ط[11]، مكتبة المجتمع العربيّ للنّشر والتّوزيع، عمّان، الأردن، 2014م، ص.17.

[6] ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقيّ، ط[1]، دار الكتب الوطنيّة، ليبيا، 2001م، ص.22.

على دراسة دين لا تؤمن به كما فعل المستشرقون".[7] وهنا نتبيّن أنّ مفهوم الاستشراق قد ارتبط عند الباحث محمّد دسوقي بالنّسق الدّينيّ للغير.

وفي السّياق نفسه ربط المفكّر مالك بن نبيّ النّسق السّياسيّ بالنّسق العقائديّ، واعتبر الاستشراق هوى سياسيًّا ودينيًّا، هدفه هدم هويّة المسلمين وحضارتهم: "وغاية هذا الهوى السّياسيّ والدّينيّ هو في هدم الأصول والثّوابت الّتي بُنيت عليها الثّقافة الإسلاميّة، والشكّ في المصادر الأساسيّة لهذه الثّقافة."[8]

لاحقاً أخذ مفهوم الاستشراق منحى آخر عند الباحث إدوارد سعيد، حيث وصفه تارةً بالظّاهرة وتارةً بالأسلوب، وتارةً أخرى بالنّمط في عدّة مقامات في كتاباته، وربط الخطاب الاستشراقيّ بالنّسق السّلطويّ، واعتبره "أسلوباً غربيًّا للهيمنة على الشّرق، وإعادة بنائه، والتّسلّط عليه، في مجالات السّياسة وعلم الاجتماع، والمجالات العسكريّة، والإيديولوجيّة، والعلميّة، والخياليّة."[9]

وذكر أيضا أنّه "نمط من الإسقاط الغربيّ على الشّرق وإرادة السّيطرة عليه.[10] و"أسلوبٌ للخطاب، أي للتّفكير والكلام، تُدعِّمه مؤسّسات ومفردات وبحوث علميّة، وصور، ومذاهب فكريّة، بل وبيروقراطيّات استعماريّة، وأساليب استعماريّة."[11]

---

[7] محمّد الدّسوقي، الاستشراق والفقه الإسلاميّ، مقال في مجلّة كليّة الشّريعة والدّراسات الإسلاميّة، جامعة قطر، ع05، 1987م، ص.701.

[8] مالك بن نبيّ، الظّاهرة القرآنيّة، ترجمة عبد الصّبور شاهين، طبعة دار الفكر، دمشق، سوريا، 1985م، ص.22.

[9] إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربيّة للشّرق، ترجمة محمّد عناني، رؤية للنّشر والتّوزيع، القاهرة، 2006م، ص-ص.45-46.

[10] إدوارد سعيد، الاستشراق، المعرفة، السّلطة، الإنشاء، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسّسة الأبحاث العربيّة، بيروت، لبنان، 1981م، ص.120.

[11] المرجع نفسه، ص44.

نستشفّ ممّا ذكرناه مدى ارتباط الاستشراق عند الباحث إدوارد سعيد بالسّيطرة الأوروبيّة–الأمريكيّة على الشّرق أكثر من كونه خطاباً صادقاً حوله.

ثمّ تغيّر المفهوم من ارتباطه بالنّسق السّلطويّ السّياسيّ إلى ارتباطه بالنّسق المعرفيّ الأكاديميّ والبحثيّ العلميّ المنهجيّ، بغضّ النّظر عن أهدافه، حيث ذهب الباحث ساسي سالم الحاج إلى اعتبار الاستشراق "الدّراسة المتقصّية المتنوّعة المتعدّدة الأغراض الّتي مارسها الغربيّون لمحاولة فهم الشّرق والتّعرّف إلى كنوزه الحضاريّة، وعاداته وتقاليده وحضارته وديانته وكلّ منحى من مناحي حياته، مهما كان الغرض الدّافع إلى هذه الدّراسة سواء أكانت لأهداف دينيّة أو عسكريّة أو سياسيّة أو اقتصاديّة أو علميّة."[12]

من جانب آخر، نجد أنّ مفهوم الاستشراق قد ارتبط عند بعض الباحثين بالنّسق الجغرافيّ المتمثِّل في التّقسيم شرق–غرب، ليدلّ عند الباحث إدوارد سعيد على "أسلوب فكر يقوم على التّمييز الوجوديّ والمعرفيّ بين ما يُسمّى "الشّرق"، وبين ما يُسمّى" الغرب."[13]

الملاحَظ هنا أنّ الباحث إدوارد سعيد قد نهَج في تعريفه نهْج الغرب الّذي قسّم العالم إلى شمال بارد وجنوب دافئ، وشرق وغرب مع افتراض غرب متحضّر إزّاء شرق بربريّ مسكون بالخرافات.[14]

ويجدر التّلميح هنا إلى أنّ مصطلح الشّرق عند الغرب لا يعني النّسق الجغرافيّ فقط بل يتعدّاه ليصف النّسق الثّقافيّ بما يحمله هذا الشّرق من عادات وتقاليد وأفكار، وتراث وأديان اهتمّ بها المستشرقون.

---

[12] ساسي سالم الحاج، مرجع سابق، ص.20.

[13] إدوارد سعيد، الاستشراق، المفاهيم الغربيّة للشّرق، مرجع سابق، ص.45.

[14] محمّد الدّعمي، الاستشراق الاستجابة الثّقافية الغربيّة للتّاريخ العربيّ الإسلاميّ، ط2، مركز دراسات الوحدة العربيّة، لبنان، 2008م، ص–ص.69–72.

وقد عُنيت الدّراسات الاستشراقيّة أيضاً بدراسة شمال إفريقيا وباقي البلدان الإسلاميّة في العالم للكشف عن ثرواتها، بغية تأمين مصالح الدّول الغربيّة، حيث أعانت التّفرقة الجغرافيّة "شرق–غرب"، صنّاع القرار والباحثين على صياغة نظريّات، وكتابة روايات وقصص مليئة بالخيال، أدرّت معها مصطلحات أصبحت لصيقة بالشّرق الرّومانسي كمصطلح الحريم الّذي يوحي بالانغماس في ملذّات الحياة، والرّجل الشّرقيّ الشّهوانيّ. تلك المصطلحات الحاملة للدّلالات المشوّهة للحقائق، والّتي تفشّت بصورة لافتة في إنتاجات ودراسات المستشرقين حول الشّرق الخياليّ وأهله مقارنةً بالغرب.

وما يُعزِّز ذلك قول الباحث ديريك هوبود في كتابه التّصوّرات الجنسيّة عن الشّرق الأوسط، "عُرض الشّرق بكيفيّة تتجاوز الصّورة السّائدة الّتي تختزله إلى مهد الحكايات الغرائبيّة... فالغرب مُهيمن، والشرق مذعن. والغرب عقلانيّ ومتقدِّم، والشّرق مبهم ومتخلِّف. الغرب ذكورة، والشّرق أنوثة. الأوّل منضبط جنسيًّا (ونتيجةً فهو الأقوى)، والأخير داعر ومنفلت العقال".[15] وقد استُغلّت هذه التّنميطات لتبرير السّيطرة على الآخر الشّرقيّ.

[15] ديريك هوبود، التّصوّرات الجنسيّة عن الشّرق الأوسط، البريطانيّون والفرنسيّون والعرب، ترجمة ناصر مصطفى أبو الهيجاء، هيئة أبو ظبي للثقّافة والتّراث، أبو ظبي، الإمارات العربية المتّحدة، 2009م، ص.15.